

العنوان: الأسرة الممتدة و دورها في بناء الشخصية المسلمة : نماذج تطبيقية
من بيت النبوة

المؤلف: **الفقيه ، شفاء علي ، مؤلف**

المصدر: المؤتمر العلمي الدولي - الأسرة المسلمة في ظل التغيرات المعاصرة -
المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الأردن

الهيئة المسؤولة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والجامعة الأردنية ووزارة التنمية
الاجتماعية

مكان انعقاد
المؤتمر: عمان

الشهر: إبريل - جمادى الأولى

التاريخ (م): ٢٠١٣

التاريخ (هـ): ١٤٣٤

الصفحات: ١ - ٢٣

رقم MD: ١٦٩٢٢٧٧

الأسرة الممتدة ودورها في بناء الشخصية المسلمة

نماذج تطبيقية من بيت النبوة

شفاء علي الفقيه(*)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فقد امتاز النظام الاجتماعي في الإسلام بالمحافظة على شبكة العلاقات الأسرية انطلاقاً من الأسرة النواة ومن ثم الأسرة الممتدة أو العائلة الموسعة التي تضم الأعمام والأخوال والعمات والخالات وأبناء العمومة أو الخؤولة، حتى يتشكل المجتمع المسلم الذي تريده الشريعة. ويعد وجود الأسرة الممتدة ركيزة أساسية تسهم في تربية المسلم تربية صحيحة من الجوانب السلوكية والفكرية والعلمية وغيرها، وتسهم في جعله إنساناً صاحب هم ورسالة، منتم لمجتمعه يتحمل مسؤولياته وينهض به، وقد كان للأسرة الممتدة عمومة وخؤولة وأجداداً دور مستمر في بناء الأفراد وتربيتهم، وغرس القيم وتوجيههم، وإكسابهم المهارات والمعارف، وهذا التأثير يرتبط بما تقدمه الأسرة الممتدة لأبنائها من عطف وحنان، ونماذج يمكن الاقتداء بها والتفاعل معها لتسهم في البناء الوجداني والسلوكي والعلمي.

ولما كانت الأسرة العربية في جذورها التاريخية أسرة ممتدة ارتبطت بنظام العشيرة والقبيلة، جاءت الشريعة الإسلامية فأقرت هذه المؤسسة الاجتماعية التربوية ولكن ضمن إطار ديني وقيمي موجه يتفق مع غايات الإسلام وأهدافه السامية. ولكن التغيرات التي طرأت على مجتمعاتنا العربية أثرت في التماسك الأسري، وأضعفت دور الأسرة الممتدة وتأثيرها على الفرد ونشأته، وتغيّرت على إثرها نظرة العديد من الأفراد لها. ونظراً لأهمية وجودها وأثرها الكبير الذي يمكن أن تحدثه في حياة الفرد فقد دفعني هذا للعود إلى بيت النبوة الأول -بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبيوت أزواجه- في قراءة تاريخية اجتماعية تحليلية سعت من خلالها إلى البحث عن تمثيلات للأسرة الممتدة، لأكشف بها عن الأدوار التي قامت بها وأثرت فيها على الأفراد الذين نشأوا في ظلها، فأعيد من خلال هذه القراءة بناء صورة واقعية طبّقها النبي -صلى الله عليه وسلم- ابتداءً، وقدم بها نموذجاً حقيقياً واقعياً يؤكد على أهمية الأسرة الممتدة ودورها الفاعل في تنشئة الأفراد من مختلف الجوانب.

ولذا، فقد جاء هذا البحث للإجابة عن التساؤلات الآتية: ما أثر الأسرة الممتدة في تنشئة الفرد وبناء شخصيته؟ وما أهم النماذج التي ظهر فيها دور الأسرة الممتدة في عصر النبوة؟ وكيف يمكن للأسرة الممتدة أن تؤثر في سلوك الفرد وبناء شخصيته؟ وفي سبيل الإجابة عن هذه التساؤلات فقد رصدت في هذا البحث الأهداف الآتية:

- بيان منهج القرآن الكريم والسنة النبوية من الأسرة الممتدة، وبيان أثر هذا في توجيه الشخصية المسلمة.

(*) دكتوراه في الحديث النبوي الشريف، الجامعة الأردنية 2011م. أستاذ مساعد في جامعة الحدود الشمالية في قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية والآداب بالسعودية. البريد الإلكتروني: shefaalfaqieh@yahoo.com

- عرض نماذج من تمثيلات الأسرة الممتدة في عصر النبوة.
 - تحليل أثر الأسرة النبوية الممتدة على أفرادها الذين نشأوا في ظلها.
 - استخلاص أهمية الأسرة الممتدة في تنشئة الفرد وبناء شخصيته من النواحي الفكرية والثقافية والدينية.
- وعليه، فإن هذه الورقة تسعى لتناول موضوع الأسرة الممتدة وأثرها في تنشئة الفرد تنشئة صحيحة، فتناولت في البحث موقف القرآن الكريم والسنة والنبوية من الأسرة الممتدة، وعلاقة ذلك ببناء شخصية الفرد، وبحثت بعدها عن الترابطات بين الأسرة الممتدة والأسرة النووية، ثم عرضت أثر وجود الأسرة الممتدة على تنشئة الفرد وبناء شخصيته، ثم انطلقت بعدها للكشف عن تمثيلات الأسرة الممتدة في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيوت أزواجه. وقد سلكت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، واعتمدت منهج الاستقراء الناقص في انتقاء شواهد نبوية من بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وتتبعها للوصول إلى تصوّر واضح حول نماذج الأسرة الممتدة في بيت النبوة وأثر هذه العلاقة الرحمية على الأفراد الذين نشأوا في ظلها.

أولاً: التعريف بالأسرة الممتدة:

تعد الأسرة الممتدة في العصر الحالي نمطاً من أنماط الأسرة وأشكالها؛ إذ أنّ أشكال الأسرة تتنوع إلى صور كثيرة كالأسرة النووية، والأسرة النووية المعيارية، والأسرة ذات الشريك الواحد، وأسر الزواج المتكرر، والأسرة الثنائية، وهذه التقسيمات مبنية على أساس مكونات أفراد الأسرة. وهناك تقسيمات أخرى وضعها علماء الاجتماع لأشكال الأسرة من بينها: الأسرة الثابتة وغير الثابتة، والأسرة الاستبدادية والديمقراطية والأسرة الكبيرة الممتدة والصغيرة المحدودة.⁽¹⁾ وتعرف الأسرة بشكل عام في مفهوم الشرع بأنها: "الوحدة الأولى للمجتمع، وأولى مؤسساته التي تكون العلاقات فيها الغالب مباشرة، ويتم داخلها تنشئة الفرد اجتماعياً، ويكتسب فيها الكثير من معارفه ومهاراته وميوله وعواطفه واتجاهاته في الحياة، ويجد فيها أمنه وسكنه."⁽²⁾ أمّا في مفهوم علم الاجتماع، فتعرّف بأنها: "رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما، وتشمل الجدود والأحفاد وبعض الأقارب، على أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة."⁽³⁾ وتعرف تربوياً بأنها: "الوعاء الاجتماعي الذي يتلقى الطفل، ويتفاعل معها ويشعر بالانتماء إليها."⁽⁴⁾

وتقسم الأسرة من حيث نطاقها إلى قسمين: الأسرة الضيقة وتضم الزوجين والأولاد فحسب، والأسرة الممتدة وهي التي يتسع إطارها ليعم سائر الأقارب من آباء وإخوة وأعمام. فالأسرة "النواة" أو "الضيقة" تعرف تربوياً بأنها: "الأسرة التي تتكون من الزوجين وأولادهما المباشرين غير المتزوجين، ويقيمون في سكن مستقل"، وهي أكثر أشكال الأسر انتشاراً في العالم، وتختلف في حجمها، فقد تتألف من أب وأم وطفل واحد، بينما تتألف

(1) القصاص، مهدي محمد. علم الاجتماع العائلي، المنصورة: عامر للطباعة والنشر، 2008م، ص23.

(2) عقلة، محمد. نظام الأسرة في الإسلام، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، 2، 1989م، ص8.

(3) المرجع السابق، ص10.

(4) الحازمي، خالد بن حامد. أصول التربية الإسلامية، الرياض: عالم الكتب، ط1، 2000م، ص308، نقلاً عن:

- أبو العينين، علي خليل مصطفى. القيم الإسلامية والتربية، مكتبة إبراهيم حلي، ط1، 1988م، ص387.

أسرة نووية أخرى من أب وأم وأكثر من عشرة أطفال.⁽¹⁾ أما الأسرة الممتدة فتعرف عند التربويين: بأنها أسرة تضم الأصول والفروع، وتتكون من الزوجين والأبناء ويزيد عدد أفرادها، مع إمكان انضمام أفراد قربي آخرين، فتتضمن إليها زوجات الأبناء وأبناء الأبناء وتضم أيضاً الجدود، وتتميز بكونها تجمع كل أفرادها في مسكن واحد، ويشتركون في الوظائف الأساسية للأسرة، كما أنها لا تعتبر الأفراد مستقلين من الناحية الاقتصادية بل تتداخل فيها المصادر والموارد وتقسم فيها مسؤوليات الإنفاق.⁽²⁾

وينبغي أن ننوه هنا إلى أن هناك تفاوتاً حاصلاً بين بعض علماء الاجتماع في تحديدهم لدلالة الأسرة ونطاقها؛ حيث يذهب البعض إلى أنها لا تنحصر بين كائنين بل تشمل كل جماعة ذات وحدة اقتصادية (من حيث السكن وإدارته)، ويذهب آخرون إلى أنها تتسع لتشمل مطلق الأقارب، وفي المفهوم الإسلامي فإن الأسرة تتكون من الأبوين والأبناء بشكل رئيسي، وتتجاوز في بعض النطاقات والوظائف إلى الأجداد والأحفاد والأعمام والأخوال ممن يمكن أن يتداخلوا أسرياً في ظواهر ترتبط بولاية الأمر أو الإرث ونحو ذلك.⁽³⁾ والملاحظ من خلال التعريفات التربوية السابقة أنها قيدت الأسرة الممتدة بالسكن الواحد المشترك، ويبدو أن هذا شرط من شروط تعريف الأسرة الممتدة عند التربويين والمتخصصين في علم الاجتماع، وهذا أمر يقيد مفهوم الأسرة الممتدة، ولا يتفق مع ما ذهب إليه الشرع في النظر للأسرة الممتدة، إذ أن إطلاق لفظ الممتدة نتيجة لامتداد روابط الرحم وعدم اقتصرها على العلاقة الرحمية بين أفراد الأسرة النواة، وإنما تمتد لتشمل الأصول والفروع والحواشي من الإخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، سواء جمعهم مسكن واحد أم لم يجمعهم؛ لأن الضابط هو توافر القرابة ووجود العلاقة الرحمية دون اشتراط السكن المشترك، وهذا ما أقره القرآن الكريم والسنة النبوية، فالقرآن فرض حقوق الرحم أوجب الصلة بين الأرحام دون النظر إلى المسكن وغيره من العوامل المادية. واشترك أفراد العائلة الواحدة في مسكن واحد أمر ظهر في بعض المجتمعات نظراً للظروف الاجتماعية والاقتصادية كما في مجتمعات الريف وبعض المجتمعات المدنية التي يضطر فيها الأبناء بعد زواجهم للإقامة مع أسرهم النواة نتيجة الاشتراك في نفس الحرفة أو العمل، أو بسبب ضعف النواحي المادية التي لا يتمكن الأفراد بسببها من الاستقلال بمسكن خاص بهم. "والأسر الممتدة لا تزال موجودة في العديد من المجتمعات العربية والشرقية، ولكن بتفاوت من مجتمع لآخر، وما زالت هناك أسر ممتدة موجودة في المجتمعات الريفية والمدنية والبدوية، ويعتبر البعض أنها موجودة في المجتمعات الريفية بصورة أكبر منها في المجتمعات الحضرية."⁽⁴⁾

ثانياً: موقف القرآن الكريم والسنة النبوية من الأسرة الممتدة:

(1) شكري، علياء. الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة، القاهرة: دار المعارف، ط1، 1979م، ص177.

(2) انظر:

- أبو عليان، بسام محمد. "أساليب التنشئة الاجتماعية في الأسرة اليمنية وأثرها على التحصيل الدراسي لدى الأبناء"، (رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2006م)، ص93.

- روشه، خالد، "التربية الأسرية في الإسلام"، <http://www.almoslim.net/node/132461>.

(3) البستان، محمود. الإسلام وعلم الاجتماع، بيروت: مجمع البحوث الإسلامية، ص188-189.

(4) أبو عليان، أساليب التنشئة الاجتماعية في الأسرة اليمنية، مرجع سابق، ص93.

إن المتبع للقرآن الكريم والسنة النبوية لا يجد أيًا منهما تناول الحديث عن الأسرة بهذا اللفظ الصريح، وإنما كان التعبير عن الأسرة الممتدة في القرآن الكريم من خلال دلالات لفظية تضيق وتتسع، وتدور حول علاقة القرابة، من مثل القربى والرحم والأهل والعشيرة، والرهط.⁽¹⁾ والتأمل لموقف القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أن هناك إطاراً شرعياً حدّد به المشرّع حكم إقامة هذه العلاقة الرحمية، ومن ثمّ بيّن حقوق وواجبات الأطراف، ثمّ جاء بضوابط شرعية هامة تنهى عن استغلال علاقة الرحم والقرابة في غير محلها وفيما يوقع الناس في الظلم، فكان تناول مصدري التشريع للأسرة الممتدة المتمثلة بالقرابة والرحم فيها مؤطراً بالحقوق والواجبات والضوابط، ولم يتركه الشرع لدائرة الاجتهاد والأهواء الخاصة.

1. رعاية الأسرة الممتدة في القرآن الكريم وأثر هذه الرعاية على بناء الفرد:

إن الحديث عن رعاية القرآن الكريم للأسرة الممتدة يحتاج إلى بحث قائم بذاته، فقد جاء القرآن الكريم بسلسلة من التوجيهات - حثّ من خلالها الأفراد على القيام بحقوق أولي القربى - التي شكّلت من خلالها منهجاً متكاملاً للعناية بالأسرة الممتدة وتفعيل دورها، وهذا المنهج الذي تشكّل من خلال توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية يسهم بصورة كبيرة في بناء شخصية الفرد وتعزيز القيم الأخلاقية والسلوكية التي ينبغي أن يكتسبها نتيجة للتفاعل الاجتماعي المجتمعي بينه وبين أفراد أسرته وأقاربه وأرحامه. وقد تلخّصت بمحاور ثلاثة هي: التأسيس، والبناء للعلاقات الأسرية ووظائفها، ومن ثمّ، بيان الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة، الأمر الذي يترك أثراً عميقاً في نفس الفرد بأنه جزء حقيقي من أسرته ويؤثر ويتأثر وينفعهم وينفعونه، وأخيراً، وضع موجّهات وضوابط لتوجيه هذه العلاقة بما لا يوقع الفرد في ظلم أو سوء استغلال لهذه العلاقة؛ كالتالي:

أ. التأسيس، من خلال بيان وظائف الأسرة الممتدة وأهميتها على الفرد، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر: أشار القرآن الكريم لعدد من وظائف الأسرة الممتدة التي تؤثر على تنشئة الفرد في حياته منها:

- الدعم المعنوي والعاطفي والوجداني، من خلال الأمر بإحسان معاملة ذوي القربى لبعضهم البعض، حيث قرن القرآن الكريم كثيراً بين الإحسان للوالدين والأقارب واليتامى والمساكين في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: 83]، وقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: 36]. وعند تطبيق الأفراد لمقتضى الآيات القرآنية بالإحسان فإنه يعمق حسن الخلق وحسن المعاملة تجاه الوالدين وذوي القربى ابتداءً وانتهاءً بالمجتمع.

(1) بعض من هذه التعبيرات يقصد بها أحياناً: الأسرة النواة أو الزوجة، وفي مواضع تمتد لتتسع إلى دائرة الأقارب، أو العشيرة كما يأتي:

- أهل بيت الرجل: تطلق على الزوجة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَيَّ الْكَلْبِ هُدًى﴾ [طه: 10]. وقد يراد به الأقارب من العائلة الممتدة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35]، وقد يراد به الورثة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [النساء: 92].
- وبالنسبة للتعبيرات الأخرى الدالة على الأسرة الممتدة فقد تناولتها العديد من الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، وكما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْئَعُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ أَن رَّهَطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أُنْتِ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91].

- لمزيد من التفصيل: أنظر: الحازمي، أصول التربية الإسلامية، ص 308.

- تقدم المساندة الاجتماعية لهم بصورها المتعددة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75]. وهذه الآية الكريمة تأتي بمثابة تشريع عام يشمل مختلف صور الدعم والتكافل الذي يحتاجه الفرد من دعم مالي بالتوارث وغيره، ومن نصرة ونصيحة وتوجيه، وإنفاق وغيره.⁽¹⁾

- الاشباع العاطفي الاجتماعي للفرد، من خلال الأمر بالإكرام بالأعطيات للتقرب لهم وتقوية العلاقات، حتى لو لم يكونوا فقراء ولكن صلة لهم، وإبقاء لحبل المودة في القربى أن يبقى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177].

ب. ضبط العلاقات بين أفراد العائلة، من خلال تنظيم الشريعة علاقة الفرد بأسرته الممتدة، من خلال بيان عدد من الحقوق والواجبات التي تأطر هذه العلاقة بدائرة من الأحكام التنظيمية تنعكس على شخصية الفرد وتنشئته وتحمله لمسؤوليته الاجتماعية تجاه أسرته، ومن هذه الأحكام:

- "الدية في القتل الخطأ ووجوبها على الأسرة، فهي تجب على الأسرة بمعناها الممتد، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92]. وبهذا نجد وجوب التعاون بين الأسرة بمعناها الممتد، فهي تتعاون في غرم الجرائم تدفعه، وفي تعويضها تأخذه."⁽²⁾ والدارس للحكمة من نظام الدية يجد أن هناك أبعاداً تربوية هامة تتعلق بتهذيب سلوك الفرد من خلال استخدام الأسرة الممتدة وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي، إذ أن الفرد عندما يعي أنه إن وقع في جريمة ما فإن الأمر سيؤثر على أفراد العائلة الممتدة أو العشيرة وسيحملهم التبعات المادية، فقد يشكل هذا دافعاً لردعه من التسرع والاندفاع تجاه إيذاء الآخرين، وبالمقابل، يعد نظام الدية رابطاً يربط الفرد بعائلته لمساندته في حال وقع من أحدهم قتل خطأ. وهذا الأمر يُفعل دور الأسرة الممتدة ويظهر أهمية وجودها لمساندة الفرد في كل الأحوال.

- تشريع نظام النفقة بين الأقارب: "إنَّ الله أوجب للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغني، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ مَلَائِكَةٍ مَقَاتِحَهُ﴾ [النور: 6]."⁽³⁾

- حق الميراث، فقد جاء الإسلام بتشريع عظيم نظم فيه حقوق أفراد العائلة في الميراث ضمن أحكام واضحة منظمة حفظت لكل ذي حق حقه. قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَكَذَلِكَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 11]. يقول

(1) انظر: الزحيلي وهبة. تفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دمشق: دار الفكر المعاصر، ط2، 1418هـ، ج10، ص87.

(2) أبو زهرة، محمد. المعجزة الكبرى القرآن، القاهرة: دار الفكر العربي، 1970م، ص337.

(3) المرجع السابق، ص338.

محمد أبو زهرة: "في هذه الآيات الكريمات بين الله تعالى ميراث الأولاد والأبوين والزوجين، وميراث أولاد الأم، فالكلالة هنا أولاد الأم، كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- تطبيقه لأحكام القرآن في الميراث. وهناك كلالة أخرى، وهي كلالة الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب، وقد بينها الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: 176]. وقال تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75]، فإنها كما تدل على المودة بين أولي القربى تدل على أولوية الميراث أيضاً، ولذا اقترن بما قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾ ويلاحظ في نظام الميراث هنا أن المشرع حرص على توزيع التركة وعدم حصرها في يد فئة معينة من الأقارب، كما أنه حرص على أن يكون الميراث للأقرب فالأقرب، لأن العبرة في استحقاق الميراث أن يكون لمن يعد وجودهم امتداداً لحياة المتوفى، ولكنه لم يحصر الميراث في دائرة الأسرة النوواة وإنما فرض للجد والجدة نصيباً، وكذلك الأعمام كان لهم نصيب في حالات معينة، وأثر نظام الميراث على الفرد كبير إذ أنه معين للأفراد وداعم لهم.

ت. حرص الإسلام على تفعيل علاقات القرابة والرحم بصورة تعود على الفرد والمجتمع بالخير والمنفعة والاستقرار، مع تحذير القرآن الكريم من انحراف هذه الصلة التراحمية بين أفراد العائلة الممتدة إلى وسيلة للظلم والتعدي على حقوق الآخرين، أو وسيلة لتحصيل المكاسب المادية دون وجه حق، إن تحولت إلى تعصب أعمى لذوي القربى، على الرغم من أن المشرع أمر بها ودعا إليها، وكأني بالمنهج القرآني لما شرع منظومة الأسرة الممتدة أراد أن تشكل هذه المنظومة نماذج إيجابية في مجتمعاتها فلا تكون دائرة العلاقات الممتدة دافعاً للفساد ومبرراً للظلم. وهذا ما جاء القرآن الكريم ينهى عنه في مواضع متعددة اذكر منها:

- ففي القرآن الكريم عن كتم الشهادة، وأمر بوجوب الإدلاء بها حتى لو كانت على حساب أحد من ذوي القربى، فلا يجوز للمسلم أن يميل مع ذي القربى في قول الزور والشهادة بغير حق فيقع في محاباة قريبه على حساب إحقاق الحق وبيان الشهادة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسَبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ اللَّائِمِينَ﴾ [المائدة: 106].

- كما نعت الشريعة عن استغلال هذه العلاقة الأسرية في أكل مال اليتيم سواء من قبل العم أو الجد، أو أي قريب من الأقارب يكفل يتيماً ذا مال، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152]. ولم تكن في الآيات بالنهي عن أكل مال اليتيم، وإنما حذرت من أي انحراف عن الحق والعدل بسبب هذه العلاقة، لأن إقامة العدل بين الناس مقدّم على مراعاة صلة القرابة، بل إنها من المحظورات التي تحرم على المسلم؛ إذ أن ظلم المسلم لأخيه المسلم تحقيقاً لمصلحة قريب له أمر غير مشروع بحال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

(1) المرجع السابق، ص 339.

وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿152﴾ [الأنعام: 152]. ثم إن القرآن الكريم حذر من الفشل الآخروي نتيجة للانسياق والسير وراء أفراد معينين من العائلة الممتدة، إن كان لهم تأثير سلبي خطير عليهم، يودي بانحراف في السلوك أو في الإقدام على أي أمر محرم بدافع إرضاء ذوي القربى، إذ جاء القرآن فأكد على تحمل كل إنسان نتيجة أفعاله وأعماله التي يقوم بها في الدنيا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا تزر وزارة وزر أخرى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِيهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الإسراء: 15]. فالإنسان لن يجد من يتحمل عنه وزر ذنوبه وأحمال خطايا يوم القيامة، حتى لو كان من الأقارب والأرحام، فكل إنسان بما كسب رهين. ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآني وتخصيصه مسألة القرابة بالذكر والتصريح بما هو للتنبية عليها لئلا تدفع بالفرد نحو المهالك. فكم من علاقات أسرية كانت سبباً في شقاء أفرادها وسلوكهم مسالك تخالف الشرع. ويؤكد هذا إيقاف قانون النفع والضرر يوم القيامة؛ إذ لا نفع يوم القيامة من الأرحام في حمل الأوزار، فكل نفس محاسبة على ما قدمت، قال تعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [المائدة: 106].

وخلاصة القول من هذا العرض للأحكام والموجهات التي جاء بها التشريع الإسلامي، أن الشريعة الإسلامية بما أقرته من أحكام تشريعية اجتماعية واقتصادية دعمت مكانة الأسرة الممتدة، وأظهرت أهمية وجودها ومساندتها للفرد، فهناك مسؤوليات لا تستطيع الأسرة الممتدة التخلي عنها تجاه أبنائها وتؤثر في تنشئتهم واستقرارهم النفسي والمادي والاجتماعي، كما أن تكامل هذه الأدوار التي أمرت بها الآيات الكريمة يسهم في وجود موجهات أخرى للفرد لا تقتصر على أفراد الأسرة النواة، وإنما يقوي روابط الفرد بأفراد أسرته فيصبح وجود الأجداد والأعمام والأخوال في حياته وجوداً فاعلاً.

2. الأسرة الممتدة في السنة النبوية:

زخرت السنة النبوية بأحاديث كثيرة تضمّنت أحكاماً شرعية متعددة ارتبطت بالأسرة وبالأقارب وبصلة الرحم، ودعت للمحافظة على أواصر العلاقات الأسرية للمحافظة على قوة الأسرة النواة؛ لأنها جزء من الأسرة الممتدة التي يتشكل منها المجتمع المسلم، وقد رسمت هذه الأحاديث النبوية منهجاً متكاملًا للفرد والأسرة للمحافظة على الأسرة الممتدة ودعم وجودها وتفعيل دورها. ومن الملاحظ أن علماء الحديث ممن صنّفوا في الحديث الموضوعي وافقوا في تصنيفهم ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية من التعبير عن الأسرة الممتدة من خلال الأحكام البنائية التي شكّلت التصور العام للأسرة الممتدة، فعلى سبيل المثال: تناول الإمام البخاري موضوع الأسرة الممتدة من خلال أبواب صلة الرحم التي ضمّنها كتاب الآداب، فأسس للموضوع بالبدء بالأسرة النواة وحق الوالدين وما يتعلق به، ثم انتقل إلى فضل صلة الرحم وإثم قاطعها وبسط الرزق لواصلها ووصل الله تعالى لمن وصل الرحم وقانون صلة الرحم بالحرص على الصلة ما دامت الأسرة موجودة، وتثبيت قاعدة "ليس الواصل بالمكافئ". وكذلك بالنسبة للإمام مسلم، فقد تناول الموضوع من خلال كتاب البر والصلة والآداب وعرض لمجموعة من الأحاديث حول صلة الرحم تشابه منهج البخاري في الانتقاء والتخريج والترتيب للأحاديث وفقاً لتعلقها بصلة

الرحم.⁽¹⁾ وعليه، فقد عرضت السنة النبوية العديد من الأحاديث التي أسست لعلاقة القرابة ورغبت بها، وأمّرت بالمحافظة عليها من خلال وجوب الصلة وتحريم قطعها، ومن هذه الأحاديث حديث: رسول الله عليه الصلاة والسلام "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ رِزْقُهُ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ"⁽²⁾ وحديث أبي هريرة-رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- "خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ. فَقَالَ لَهَا: مَهْ. قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ." قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه- أقرعوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.⁽³⁾ والمتأمل لهذه الأحاديث يرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أسس للعلاقة الرحمية الممتدة من خلال استخدام أساليب الترغيب والترهيب وتحفيز الفرد نحو الاهتمام بعائلته الممتدة وبناء جسور التواصل معها، وربط ذلك ببركة الرزق والعمر وهما أمران يحرص عليهما كل إنسان، ونماذج هذا كثير في السنة النبوية.

وينبغي الإشارة إلى مسألة هامة وهي: أن السنة مفصلة للقرآن الكريم، وعليه، فإن ما جاء به القرآن الكريم لتأصيل نظرة الإسلام للأسرة الممتدة وما يرتبط بها من أحكام وتطبيقات جاء في السنة ما يؤكد ويفصّله ويزيده بياناً ووضوحاً، وأكتفي في هذا المقال بالإشارة لهذا دون التفصيل، وينبغي التنويه إلى مسألة هامة تتعلق بموضوع الأسرة الممتدة وما يرتبط بها من أحكام؛ إذ أن الأحاديث التي اختصت بصلة الرحم ليست وحدها الأحاديث التي اعتنت بالأسرة الممتدة، وإنما تعدّ الأحاديث التي تناولت أحكام النفقات والميراث والديات والتكافل الاجتماعي، وأحكام الصدقات، وأحكام الوقف من الأحاديث المتعلقة بالأسرة الممتدة أيضاً، بل إن هذه الأحاديث هي التي رسمت الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الأسرة في الإسلام. وفي هذا دلالة واضحة على حرص الشريعة على الواقع العملي، وعدم الاكتفاء بالتنظير؛ فالشريعة دعت للتماسك الأسري، وصلة الرحم بين أفراد العائلة، ورثبت العقوبة الشديدة المغلظة على قاطع الرحم، بحرمانه من دخول الجنة كما جاء في حديث: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ"⁽⁴⁾ ولكن الشريعة لم تكتف بهذا وإنما أصّلت منهجاً متكاملأً أوجدت فيه الأدوات التي بها تحفظ الأسرة الممتدة وتحقق دورها الفاعل في احتضان الفرد ورعايته وتنشئته. وهذا كله رسّخ لدى الفرد الشعور بالدعم الاجتماعي المتبادل وبحق المجتمع عليه وحقه عليه، فأخرجه من دائرة الأنا والانعزالية إلى دائرة تحمّل المسؤولية الاجتماعية التي تصوغ شخصية الفرد نحو الإيجابية والتعاون والكرم والبذل والعطاء والتضحية وغيرها من الأخلاق النبيلة المحمودة التي يحصلها الفرد عند التزامه بمنظومة أحكام الأسرة التي أمر بها من خلال القرآن الكريم والسنة

(1) انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل (توفي 256هـ). صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير ناصر، بيروت: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب الآداب، ج8، ص2.

(2) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم الحديث 2067، ج3، ص56.

(3) المرجع السابق، كتاب التفسير، باب (وتقطعوا أرحامكم)، رقم الحديث 4830، ج6، ص134، وانظر:

- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (توفي 261هـ). صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، رقم الحديث 2554، ج4، ص1980.

(4) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم الحديث 5984، ج8، ص5. وانظر:

- مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، رقم الحديث 2556، ج4، ص1981.

ثالثاً: أهمية الأسرة الممتدة:

أ. الأسرة الممتدة وعلاقتها بالأسرة النوواة:

يؤكد علماء التربية والمفكرون بأنّ للأسرة الممتدة أثراً بالغاً على الفرد من حيث البناء التكويني والنفسي والقيمي والعلمي؛ إذ أنّ وجود الفرد ونشأته في ظل أسرته الممتدة يجعل مصادر التأثير عليه متعددة لا تقتصر على توجيه الأبوين فقط بل تتسع وتتعدد، ولا يخفى أنّ التأثير عند بعض نماذج من الأسر يكون سلبياً، ولكن هناك تأثيرات إيجابية لا يمكن إغفالها بحال وهي ما سنركز حديثنا عليه في هذا البحث، وهذه الجوانب المؤثرة تؤكد على البناء المجتمعي المترابط الذي جاءت الشريعة الإسلامية تؤكد عليه -أيضاً- وتدعمه بأحكامها وتشريعاتها. ومع أهمية الأسرة النوواة وارتباطها المباشر بتربية الفرد وتكوينه إلا أنّ الأسرة الممتدة لها تأثير -أيضاً- في توجيه الفرد ونشأته، فقد يكون دور الأسرة الممتدة مكملاً لدور الأسرة النوواة وداعماً لها، وفي حالات قد يكون بديلاً عند غياب الوالدين أو أحدهما لسفر أو وفاة أو لانشغالها بدراسة أو عمل ونحوه، وهذا ما وقع للثبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فقد نشأ يتيم الأبوين إلا أنه تلقى رعاية وتربية من جده ومن ثمّ عمه أبي طالب وزوجه، فكانت الأسرة الممتدة هنا بديلاً عن أسرته النووية؛ أمدته بالتربية والعاطفة والحماية التي احتاجها بعد أنّ حرم من أبويه في سن مبكرة من طفولته.

وقبل الحديث عن وظائف الأسرة الممتدة وأثرها، فإنّه ينبغي أن نذكر بأنّ مسؤولية التنشئة والتوجيه تقع بالدرجة الأولى على عاتق الأسرة النوواة، وخاصة فيما يتعلق باحتياجات الطفل الأولية؛ لأنّها أساس الإنجاب والتكاثر، وهي مصدر الأخلاق والدعامة الأولى لضبط السلوك، والإطار الذي يتلقى فيه الإنسان أول دروس الحياة الاجتماعية.⁽¹⁾ "فالأسرة أول جماعة مرجعية يتفاعل الفرد معها بشكل مباشر، لأنها تحتضن الفرد في سنواته الأولى، ومنها تتشكل شخصيته، وتتكون لديه البنى والتراكيب النفسية والاجتماعية، ومنها يتعلم ويكون نظام القيم وقواعد السلوك التي تُشكل معايير وأطر مرجعية في سلوكه وأفعاله."⁽²⁾ وللأسرة النوواة عدد من الوظائف الأساسية التي ينبغي القيام بها تجاه أفرادها، كتوفير مطالب الأسرة الأساسية، وتوفير الهوية لأعضائها عن طريق ربطهم بالدين وبالأمّة والوطن والعشيرة والعائلة، ونقل القيم والتراث والعقائد الدينية، بالإضافة إلى توفير مطالب أفراد الأسرة من النواحي الانفعالية كتوفير المحبة والاحترام، وإشعارهم بالأمان والانتماء للأسرة، وطمأننتهم لدى الخوف، وتوفير ما تستطيع الأسرة تقديمه من سعادة وفرح وتسليّة مع توفير الفرص لأبنائها للنمو تربوياً واجتماعياً، والاهتمام بتعليمهم وتنميتهم معرفياً وتطوير مهاراتهم الاجتماعية والمعرفية، وتوفير الأدوات والوسائل لذلك.⁽³⁾ والمتأمل لهذه الوظائف يجد أنّ جزءاً منها يتحقق من خلال الأسرة الممتدة حيثما وجدت، كنقل التراث

(1) انظر: الوحيدي، سكينه جميل. "العلاقة بين تواصل الأسرة الأردنية ومرونتها وتماسكها من جهة وتمرد المراهقين فيها من جهة أخرى"، (رسالة ماجستير، جامعة عمان العربية للدراسات العليا، 2006م)، ص23.

(2) البداية، ذياب موسى وآخرون. "العلاقة بين الخصائص الشخصية الأسرية لدى طلاب الجامعة أثناء الطفولة وأشكال العنف الأسري"، المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المجلد 24، العدد 48، 1430هـ، ص86.

(3) انظر:

والقيم، وتوفير الحبة والاحترام وشعور الفرد بالاستقرار، وتقديم الدعم العاطفي والوجداني، بالإضافة إلى أن وجود العائلة الممتدة يساهم في تطوير المهارات الاجتماعية والمعرفية من خلال تواصل الأفراد مع أقاربهم من العائلة كأجداد والأعمام والأخوال، كما أن هناك تأثيراً بالمستوى المعرفي والعلمي لأفراد العائلة، إذ أن هناك علاقة قوية بين توجهات الأفراد العلمية والمهنية وطبيعة المستويات العلمية والمعرفية المتوفرة في إطار العائلة.

واقصر نشأة الأفراد في ظل أسرة نووية دون الممتدة قد يكون له بعض السلبيات؛ منها: عدم تعامل الأطفال مع أنماط مختلفة من الناس ومنهم كبار السن وأصحاب الشخصيات المختلفة، كما أنهم لا يتعلمون مهارات مختلفة من الناس والآخرين، فهم لا يعيشون مع أقاربهم في نفس المكان، وكذلك لا تكون الأسر مترابطة في حالة الأزمات نتيجة لوجود حالة من التفرد والاعتداد بالنفس لدى الزوجين.⁽¹⁾ في حين أن وجود الأسرة الممتدة يؤثر على التنشئة الاجتماعية للطفل من مختلف الجوانب ويزيد من تماسك الأسرة النواة؛ لأنه يملئ على الزوجين الأخذ بعين الاعتبار أهمية العائلة الممتدة وأهمية المحافظة عليها من خلال وجود تشاركية في أخذ القرارات الحاسمة والمهمة خاصة في حالات النزاع والخصام التي تقع بين الزوجين، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم، فعلى سبيل المثال: عندما جعل التحكيم مرحلة أخيرة قبل وقوع الشقاق وسيلة من وسائل حل النزاع بين الزوجين عند فشل الوسائل الأولى التي دعا لها للإصلاح، قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَفِظْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: 35]. وفي جعل الحكيم من أهل الزوجين تأكيد واضح من القرآن الكريم على أهمية دور الأسرة الممتدة ورعايتها لأبنائها والإسهام في حل أدق مشكلاتها، فعندما يكون الحكيم من أقارب الزوجين فهذا أدعى لوجود الحرص منهما على المحافظة على عرى الحياة الزوجية ومؤسستهما من التفكك والدمار، لأنهما سيكونان حريصين على بقاء استقرار الأسر النووية التي تشكل منها العائلة الممتدة بما يخدم مصلحة الزوجين ومصلحة أطفالهما.

2. الأسرة الممتدة ودورها في تنشئة الفرد وتربيته:

تعد الأسرة أحد أهم المؤسسات الاجتماعية المسؤولة عن تنشئة الفرد وصياغة شخصيته وتنمية مهاراته، فبناء جوهر الإنسان الداخلي المتمثل في تحديد شخصية الإنسان واتجاهاته يرتبط بأسلوب التنشئة الاجتماعية ونمطها الذي يتلقاه الطفل في أسرته، فالشخصية تشكل ثقافي تتحدد طبيعته بطبيعة الحاضن الثقافي الذي ينشأ الطفل في رعايته، وطبيعة الشخصية الإنسانية مرهونة إلى حد كبير بطبيعة ومستوى الوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه.⁽²⁾ ولما كانت التنشئة الاجتماعية بمثابة عملية تشكيل وإعداد أفراد إنسانيين في أي مجتمع وفي أي زمان ومكان، ولما كانت الأسرة النواة والممتدة تشكلان المرحلة الأولى من حياة الأفراد كان لوجودهما أهمية وأثر في اكتساب

الأعرجي، زهير، النظام العائلي ودور الأسرة في البناء الاجتماعي الإسلامي دراسة مقارنة في النظرية الاجتماعية، ط1، 1415هـ، كتاب منشور على الشبكة العنكبوتية: http://www.al-aaraji.com/microsoft_word_family_1.doc.pdf، ص18.

- البدانية، العلاقة بين الخصائص الشخصية الأسرية، مرجع سابق، ص9.

(1) انظر: الجرواني، هالة إبراهيم. والمشرقي، انشراح إبراهيم. التنشئة الاجتماعية ومشكلات الطفولة، دار إحياء التراث، والكتاب، منشور على موقع جامعة أم القرى، <http://uqu.edu.sa/page/ar/107586>، ص32.

(2) جرواني، التنشئة الاجتماعية ومشكلات الطفولة، ص7، (بتصرف واختصار).

المهارات والقيم والاتجاهات، وأنماط السلوك المختلفة التي تسيّر لهم عملية التعامل مع البيئة الاجتماعية التي ينشئون منها أفراداً. ولذا، فإنّ تنشئة الطفل في ظل أسرة ممتدة -يتفاعل معها- يؤثر على تنشئته الاجتماعية، ويؤثر على أصول التربية التي يتلقاها من خلال الاحتكاك بأقاربه سواء أكانوا مقيمين معه أو من خلال فرص الالتقاء بهم والتواصل معهم، وهذا الأمر يسهم في تربية الطفل على الآداب الاجتماعية التي تلتزم بها الأسرة، كما أنّها تسهم في تطور الجانب الاجتماعي لدى الطفل من خلال تواصله مع أقاربه، بالإضافة إلى أنّه يسهم في تحسين الجانب اللغوي، والجانب المعرفي بانتقال العديد من الخبرات الاجتماعية من أقاربه إليه، ودليل ذلك أنّ هناك اختلافاً بين نشأة الطفل في ظل أسرة نووية ونشأته في ظل أسرة ممتدة؛ إذ أنّ الطفل قد يتأثر بأقاربه من مختلف النواحي أكثر من تأثره بأبويه في بعض الأحيان، ويعتمد هذا على مدى ملازمتهم والجلوس معهم وعلى طبيعة العلاقات الأسرية التي تجمع بين أفراد الأسرة.

ولعل من أكثر الجوانب التي تظهر أهمية الأسرة الممتدة هو تقديم الأسرة الممتدة للمساندة العلمية والمعرفية من خلال طبيعة التربية والتوجيه التي يتلقاها الفرد، وهذا الأمر تجلّى بصورة واضحة في التاريخ الإسلامي من خلال توارث العلم داخل الأسر الممتدة، إذ أنّ سيرة العلماء والسلف الصالح قدّمت العديد من هذه النماذج التي تؤكد أهمية الأسرة الممتدة في حياة علمائها والأثر العظيم الذي أحدثته التواصل الفعّال بين أفرادها بدءاً من عهد النبوة وانتهاءً بأيامنا الحالية، إذ أنّ التنشئة الاجتماعية للفرد في ظل أسرة تتميز بمستواها العلمي يترك أثراً حقيقياً على الفرد من النواحي الدينية والفكرية والثقافية. ونذكر على سبيل التمثيل قصة سهل بن عبد الله التستري (200-283هـ) -أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني- مع خاله محمد بن سوار، الذي كان سبباً في صلاحه وتوجيهه وحسن تربيته، حيث قال: "قال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت له: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي، ثم أعلمته. فقال: قلها في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته. فقال: قلها في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوة، فلمّا كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سري. ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل، من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده.. يعصيه؟! إياك والمعصية. فكان ذلك أول أمره." وروي أنّ عمره كان إذ ذاك ثلاث سنين فما فوقها.⁽¹⁾

ولم يقتصر أثر الأسرة على الجانب التربوي والديني، وإنما كان له أثر واضح على البناء العلمي ونقل العلوم والمعارف، إذ أنّ الترابط الأسري وعلاقة الأبناء بالأجداد والأعمام والأخوال والعمات والخالات كان وسيلة تيسر على الأفراد طلب العلم وتلقي شتى أصناف العلوم والمعارف في دائرة العائلة الواحدة. وهذا الأمر ظهر بجملاء ووضوح من خلال الأسر العريقة التي ضلعت في مجالات العلوم المختلفة، حيث أثبتت قوة تأثيرها على أفرادها، وقد بقيت الأسرة الممتدة محتفظة بمكانتها وأثرها رديحاً كبيراً من الزمن عرفت آثارها من خلال ما أطلق عليه بعض العلماء "بيوتات العلم" التي كانت تسهم في صياغة الفرد وتربيته وصناعته علمياً وفكرياً وثقافياً. ومن أهم الشواهد على هذا الجانب العظيم في أثر الأسرة الممتدة: رواية الحديث النبوي الشريف في إطار العائلة النواة

(1) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (توفي 681هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط1، 1900م، ج2، ص429.

والممتدة، فكثير من رواة السنة النبوية منذ عصر الصحابة والتابعين روى عنهم أقاربهم وأحفادهم، وحرصوا على السماع منهم وتلقي العلم عنهم قبل تلقيه من غيرهم. والأمثلة على ذلك كثيرة تكاد لا تحصى في كتب تراجم الرجال والتاريخ الإسلامي وكتب الجرح والتعديل، واكتفي بالإشارة إلى مثال عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية التي كان لها أثر كبير على أسرتها من الناحية العلمية والمعرفية والتربوية، فعمرة هي: "عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة بن عدس، الأنصارية النجارية المدنية، الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وهي أحد الثلاثة الذين يؤخذ عنهم علم عائشة -رضي الله عنها-، وقد كانت عالمة فقيهة حجة كثيرة العلم، حدث عنها ولدها أبو الرجال محمد بن عبد الرحمن، وابناه: حارثة ومالك، وابن أختها القاضي أبو بكر بن حزم وابناه: عبد الله، ومحمد."⁽¹⁾ ونلاحظ هنا احتفاء واضحاً بعمرة، إذ أنّ الرواية لم تقتصر على نطاق الأبناء وإنما امتدت للأحفاد وابنا الأخت، وفي هذا مؤشرات هامة تؤكد مدى تأثير أفراد عائلة عمرة بنت عبد الرحمن بعلمها وفقهها، وحرصهم على التلقي عنها، وهذا دليل على اشتغالهم بالعلم والحديث، وهذه ثمرة عظيمة من ثمار الأسرة الممتدة، لأنه لولا هذا الترابط الاجتماعي المتين لم يكن هذا التواصل المعرفي والعلمي بين أفراد العائلة الواحدة، كما أنّ لهذا التوارث العلمي ارتباطاً بتربية الأفراد وتوجيه سلوكهم وترسيخ القيم الدينية في نفوسهم، ودليل ذلك الأخلاق الرفيعة التي شهد بها العلماء لأفراد عائلة عمرة بنت عبد الرحمن.

وقد استمر أثر الأسرة الممتدة على أفرادها في المجتمعات الإسلامية لقرون عديدة أدت إلى نتائج إيجابية على المجتمع المسلم والأفراد؛ لأنّ سمات أفراد العائلة واهتماماتهم تنتقل في معظم الأحيان إلى الأبناء تبعاً للتماسك الأسري للعائلة ونبوغ أفراد العائلة في المجالات العلمية والمعرفية، ولعل ما يشهد لهذا التأثير انتشار ما عرف في التاريخ الإسلامي بـ"بيوتات العلم" كبيت: ابن عساكر والذهبي وابن تيمية وآل الغزي وآل العطار في الشام، وكذلك في مصر كعائلة العز بن عبد السلام وعائلة ابن مرزوق التلمساني في المغرب الأوسط، وغيرها من العائلات التي تناقل فيها الأبناء تركة الأجداد من علم ومعرفة ساهمت في حفظ علوم الأمة وثقافتها وفكرها، فقدمت نماذج إيجابية للأسر والعائلات العريقة التي حافظ أفرادها على إرثهم الثقافي والفكري والعلمي، الأمر الذي يدل على أهمية الأسرة الممتدة وتأثيرها الإيجابي على أبنائها بحسب توجهات أفراد العائلة واهتماماتهم.⁽²⁾ ولكن هذه النماذج الرفيعة التي قدّمها التاريخ سبق بها بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- من خلال ما بناه النبي -صلى الله عليه وسلم- من علاقات أسرية رحمة ممتدة في تواصل أقارب رسول الله به -صلى الله عليه وسلم-، وهذا ما سأتناوله بالتفصيل فيما يأتي.

رابعاً: نماذج من تمثلات الأسرة الممتدة في بيت النبوة:

(1) الذهبي، محمد بن أحمد (توفي 748هـ). سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط9، 1993م، ج4، ص 507.

(2) من المؤلفات التي رصدت للعديد من هذه النماذج الأسرية لبيوت العلم:

- العجمي، محمد بن ناصر. آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1999م.
- عزوز، محمد. جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث، دمشق: دار الفكر، 2004م.
- عزوز، محمد. بيوتات الحديث في دمشق، دمشق: دار الفكر، 2004م.

أ. أثر الأسرة الممتدة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

رصدت لنا سيرة النبي صلى الله عليه الصلاة والسلام نماذج متعددة تظهر أهمية الأسرة ودورها في مساندة الفرد، فقد ذكرت كتب التاريخ والسير أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- نشأ يتيماً، وهذا ما أكدّه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: 6]، فقد ولد -صلى الله عليه وسلم- يتيم الأب، فكفله جده وهو تحت رعاية أمّه آمنة بنت وهب، وظل في رعاية أمه آمنة وكفالة جده بعد أوبته من بادية بني سعد، وعندما بلغ السادسة توفيت والدته فرعاه جده عبدالمطلب بمكة⁽¹⁾، وقد كان له شأن عند جده الذي كان يقربه منه ويدينه ولا يدع أحداً يؤذيه، كما حدث معه -صلى الله عليه وسلم- عندما أرادوا منعه من الجلوس على مفرش جده عبدالمطلب في الحجر، فمنعهم من اعتراض ما يريدون، وهذه القصة رواها الأزرقى في أخبار مكة بسنده فقال: "فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ غُلَامٌ يَدْرَجُ لِيَجْلِسَ عَلَى الْمَفْرَشِ فَجَذَبُوهُ فَبَكَى فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَذَلِكَ بَعْدَ مَا حُجِبَ بَصَرُهُ: مَا لِابْنِي يَبْكِي؟ قَالُوا لَهُ: إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى الْمَفْرَشِ فَمَنَعُوهُ فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: دَعُوا ابْنِي فَإِنَّهُ يَحْسُ بِشَرِّهِ أَرْجُو أَنْ يَبْلُغَ مِنَ الشَّرَفِ مَا لَمْ يَبْلُغْ عَرَبِيٌّ قَطُّ."⁽²⁾ فنشأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ظل رعاية أسرية من جده الذي كفله حتى الثامنة من عمره، ومن ثم عمّه الذي قدّم له العطف والحنان والرعاية بعد وفاة جده، وقد ساهمت هذه التنشئة للنبي -صلى الله عليه وسلم- في تحقيق المساندة الاجتماعية له من جانين؛ الأول: تقديم التربية والعون وتوفير الحياة الأسرية من خلال فاطمة بنت أسد -رضي الله عنها- زوج أبي طالب⁽³⁾ عمّ النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالمساندة والتقدير الذي حظي بهما -صلوات الله عليه وسلامه- لم يقتصر على عمه فحسب وإنما تعدّى إلى زوج أبي طالب الصحابية فاطمة بنت أسد بن هاشم -رضي الله عنها- التي تربط بينها وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- صلة قرابة أيضاً، حيث كانت له أماً بعد أمه تقوم على شؤونه وترعى أموره ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وقد قضى النبي -صلى الله عليه وسلم- قرابة عقدين من حياته في كنفها، وليست هذه بالمدة اليسيرة، وإنما تمثل فترة هامة في حياته -صلى الله عليه وسلم- ونشأته قد يكون من أهم نتائجها استجابة فاطمة بنت أسد لدعوة الإسلام، فأصبحت من السابقات الأوليات وصارت من صفوة النساء ممن أخذن المكانة العليا حيث كانت من المهاجرات الأول.⁽⁴⁾ والجانب الثاني في المساندة هو تقديم الحماية والنصرة والدعم من خلال عمه أبي طالب، فعندما أعلن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الدعوة إلى الله تعالى وصدع بها، وقف عمه أبو طالب بجانبه -صلى الله عليه وسلم- وصمّم على مناصرته وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غمّاً وحسداً ومكرّاً، وقد وصل الأمر بأن ربط أبو طالب مصيره

(1) انظر: أحمد، مهدي رزق الله. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض: الرشد العلمية، ط3، 2012م، ص91-92.

(2) الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبد الله الغساني المكي (توفي 250هـ). أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، بيروت: دار الأندلس، ج1، ص314-315. وإسناد الرواية حسن.

(3) انظر ترجمتها:

- ابن عبد البر، ابو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (توفي 463هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البحوي، بيروت: دار الجيل، 1992، ج4، ص1891.

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (توفي 630هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، 1994م، ج7، ص212.

(4) انظر: الصلابي، علي محمد. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، القاهرة: المكتبة الإسلامية، ط1، 2010م، ص37.

محصير ابن أخيه محمد -صلى الله عليه وسلم- من خلال استخدام نفوذه وزعامته لبني هاشم، حيث جمع بني هاشم وبني المطلب إليه في حلف واحد على الحياة والموت دفاعاً عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مسلمهم ومشرِكهم على السواء.⁽¹⁾ والشاهد هنا: هو الترابط الأسري الذي كان له دور داعم ومساند للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه المساندة التي قدّمها عمُّ النبي له -صلى الله عليه وسلم- ساهمت في دعمه وثباته ومواجهته لأهل مكة، وكان لها دور في هيبته جانبيه وتجنّب إيذائه أو التعدي عليه، وهذا يؤكد أهمية مساندة الأسرة الممتدة ودعمها لأبنائها، ولولا ذلك لطلال النبي -صلى الله عليه وسلم- أذىً عظيماً من قريش لا قبل له به.

ونموذج العلاقة الأسرية التي نمت وتقرّرت بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين بيت عمه أبي طالب نموذج تظهر فيه جوانب إيجابية لأهمية الأسرة الممتدة ومدى دعمها لأفرادها، حتى وإن لم تكتمل هذه العلاقة بإسلام عم النبي -صلى الله عليه وسلم- على الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع عمّه، إلا أنّه لم يستجب له في حين استجاب للدعوة لمعظم أبناء عمه أبي طالب بالإضافة إلى زوجته، فقد دخل إلى الإسلام من أولاد أبي طالب: عقيل وجعفر وأم هانئ وجمانة وعلي -رضي الله عنهم وأرضاهم-، في حين توفي طالب بن أبي طالب بعد غزوة بدر ولم يدخل في الإسلام.⁽²⁾

ب. دور النبي صلى الله عليه وسلم في دعم أسرته الممتدة ورعاية أفرادها:

لما أمر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- بتبليغ الدعوة للأقربين في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على رعاية أفراد أسرته من أقاربه وأبناء عمومته بالتربية والتوجيه والرعاية والنصح والتعليم، وفي هذا تأكيد على تطبيقه للوصية التي أوصى بها الرجل الذي سئله -صلى الله عليه وسلم-: "يا رسول الله، من أحق بحسن الصحبة؟ قال: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك".⁽³⁾ فقد شرع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برعاية أقاربه ما أمكنه ذلك، ومن أقاربه الذين كان لهم حظ وافر بالرعاية والتنشئة والتوجيه الصحابي الجليل علي بن أبي طالب وابن عباس (ابنا عمومته) -صلى الله عليه وسلم- وهما نموذجان نخصص الحديث عنهما فيما يلي:

- أما علي بن أبي طالب، فلقد كان لتنشئته في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- أثرٌ كبير عليه، فقد تربى على يديه وفي كنفه، وهذا ما ترك أثراً كبيراً على علي -رضي الله عنه-؛ إذ أنّه كان من أوائل من دخل إلى الإسلام، وكان من أوائل من قدّم روحه فداءً للنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالهجرة إلى المدينة المنورة، فقبل علي أن ينام في فراش رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وقد كان السبب في ضم علي -رضي الله عنه- للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن أبا طالب كان كثير العيال، فترى علي وترعرع على يد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكانت هذه مما أنعم الله به على علي -رضي الله عنه-، وهذا ما رواه ابن إسحاق في سيرته قائلاً: "كَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَمِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُ وَأَرَادَهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُمْ أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(1) المرجع السابق، ص23.

(2) المرجع السابق، ص26-27.

(3) مسلم، صحيح مسلم. مرجع سابق، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأخما أحق به، حديث رقم 2548، ج4، ص1974.

وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ عَمَّهُ وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: يَا عَبَّاسُ إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْهِ فَلْنُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخِذٌ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا وَتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلًا، فَنَكْفُلُهُمَا عَنْهُ. فَقَالَ الْعَبَّاسُ: نَعَمْ. فَاذْهَبْنَا حَتَّى آتِيَا أَبَا طَالِبٍ، فَقَالَا لَهُ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفِّفَ عَنْكَ مِنْ عِيَالِكَ حَتَّى يَنْكَشِفَ عَنِ النَّاسِ مَا هُمْ فِيهِ. فَقَالَ لَهُمَا أَبُو طَالِبٍ: إِذَا تَرَكْتُمَا لِي عَقِيلًا فَاصْنَعَا مَا شِئْتُمَا. فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبَّاسُ جَعْفَرًا فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيًّا، فَاتَّبَعَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَلَمْ يَزَلْ جَعْفَرٌ عِنْدَ الْعَبَّاسِ حَتَّى أَسْلَمَ وَاسْتَعْنَى عَنْهُ. ⁽¹⁾ والرواية التي ذكرها ابن هشام في سيرته تدل دلالة صريحة وواضحة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ضمَّ عليًّا إليه وهو في سن مبكرة من طفولته قدرها البعض بالسادسة، وضمه إليه يعني إقامته في بيته وتلقيه الرعاية من النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في بيت النبوة، وهذا الأثر يعد شاهداً على نشأته -صلى الله عليه وسلم-، فالروايات تواترت على نشأت علي في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن علي -رضي الله عنه- الوحيد الذي ربي ونشأ في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد نشأ زيد بن حارثة في حجر خديجة بنت خويلد وروايات السيرة تؤكد على هذا، وغيرهما ممن نشأ وربى في بيت النبوة. ⁽²⁾ ومن الملاحظ هنا أن طلب النبي -صلى الله عليه وسلم- من عمه التخفيف عنه في شؤون تربية أبنائه لاقى قبول أبي طالب، وهذا يوضح جانباً من واجبات صلة الرحم بين أفراد الأسرة الممتدة في التحمل عن بعضهم البعض والوقوف إلى جانب بعضهم في أوقات الشدة، وهذا ما قام به النبي -صلى الله عليه وسلم-. "ولقد أسهمت تربية النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي -رضي الله عنه- في حسن تربيته وتوجيهه، حيث عصمته هذه التربية من عبادة الأوثان والبقاء على عادات الجاهلية التي كانت عند العرب، فتربى -رضي الله عنه- على الفضيلة وأخلاق القرآن الكريم؛ إذ أنه نشأ في بيت الإسلام وتعرّف إلى أسرارها في مرحلة مبكرة من حياته، وذلك قبل أن تتخطى الدعوة حدود البيت وتنطلق إلى البحث عن أنصار يشدون أزرها، فقد كان إسلامه وهو صبي حديث السن." ⁽³⁾

- وأما عبد الله بن عباس (أبو العباس) ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العباس بن عبد المطلب شبيه بن هاشم (البحر حبر الأمة وفقه العصر وإمام التفسير) فقد ولد بشعب بني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، أي: أن عمره كان عند وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- أربعة عشر عاماً. ⁽⁴⁾، ومع قصر السنوات التي لازم بها ابن عباس -رضي الله عنه- النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أنه حرص على ملازمته ومرافقته -صلى الله عليه وسلم- في كل حال في سبيل التلقي والتعلم. وقد ساهمت قرابته بميمونة بنت الحارث (وهي

(1) ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (توفي 213هـ). السيرة النبوية، جدة: مؤسسة علوم القرآن، ج1، ص245.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، ج1، ص247-248.

(3) الصلاحي، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مرجع سابق، ص43. (باختصار).

(4) انظر ترجمته:

- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري (توفي 230هـ). الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ط1، 1968م، ج3، ص331.

- الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج3، ص331.

حالته) في تهينة مزيد من الفرص للتربية والملازمة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان لهذه العلاقة القرابية دور في تلقي العلم وإيجاد فرص الصحبة والمرافقة للنبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة في الأوقات التي يكون فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- عند حالته ميمونة ليتعلم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويراقب عباداته. ودليل ذلك حديث ابن عباس -رضي الله عنه- قال: "بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، فَقَامَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ قَامَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- فَتَوَضَّأَ مِنْ شَنْ مَعْلَقٍ وَضُوءًا خَفِيفًا [...] وَقَامَ يُصَلِّي، فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ -وَرَبِّمَا قَالَ سُفْيَانٌ عَنْ شِمَالِهِ- فَحَوَّلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ..."⁽¹⁾ ويظهر من الحديث حرص واضح من ابن عباس للتعلم من النبي -صلى الله عليه وسلم- من خلال الحرص على المبيت لديه في بيت خالته ومراقبة وضوئه وعبادته وقيامه للتعلم منه، كما يظهر لدينا متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عمه وتقويم سلوكه عندما حوله من يساره إلى يمينه لتعليمه أصول صلاة الجماعة. يقول خالد محمد: "تلقى ابن عباس في حديثه كل خامات الرجولة، ومبادئ حياته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يؤثره، ويزكيه، ويعلمه الحكمة الخالصة."⁽²⁾

ونستطيع أن نستخلص جوانب التربية التي رعاها النبي -صلى الله عليه وسلم- في أبناء عمومته علي بن أبي طالب وابن عباس -رضي الله عنهم وأرضاهم-، إذ أن هذه الرعاية التي تلقوها أسهمت في التربية العقدية الإيمانية والعبادية والخلقية والفكرية والعلمية، وغيرها؛ فقد ظهرت الرعاية المادية من خلال تكفل النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عمه علي بن أبي طالب تخفيفاً عن والده. وأمّا التربية الروحية، فإنّ تعليم الرسول -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب وابن عباس -رضي الله عنهما وأرضاهما- أصول الإيمان رسخ فيهما النواحي الروحية، ومن الشواهد على ذلك حديث ابن عباس -رضي الله عنه- ووصية النبي -صلى الله عليه وسلم- له وهو غلام حدث السن، والحديث نصه: "عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِي بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ."⁽³⁾ يظهر من الحديث صحبة النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس واصطحابه معه في السفر والحضر، الأمر الذي يزيد القرب النفسي وتقدير الذات، خاصة وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أركبه خلفه، وهذه لفتة وجدانية هامة لابن عباس -رضي الله عنه-، يضيف إليها النبي -صلى الله عليه وسلم- تعليمه وتأديبه وتوجيهه ليغرس الإيمان وحسن التوكل على ربه في قلبه وهو صغير السن غض العمر. ولم تقتصر رعاية النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذه الجوانب، وإنما قدم -صلى الله عليه وسلم- التربية الوجدانية والنفسية لهما، ومثالها قول

(1) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء، حديث رقم 138، ج1، ص40.

(2) خالد، محمد خالد. رجال حول الرسول، بيروت: دار الفكر، 2000م، ص392.

(3) الترمذي، محمد بن عيسى (توفي 279هـ). سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب، 1998م، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب 59، رقم الحديث 2516، ج4، ص248. والحديث حسن صحيح. وأخرجه:

- أحمد، محمد ابن حنبل. المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت: الرسالة، 1999م، رقم الحديث 2763، ج4، ص487.

النبي -صلى الله عليه وسلم- لِعَلِيٍّ: "أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ." وَقَالَ عُمَرُ: تُؤْفَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ. (1)

وأما التربية الاجتماعية وتنمية المهارات، فقد فتح النبي -صلى الله عليه وسلم- بيته لأبناء عمومته وعكف على رعايتهم وتوجيههم وإشراكهم في الدعوة، كما أنه كان يحمل الواحد منهم المسؤوليات العديدة التي تسهم في بناء الشخصية وتنمية المهارات الفكرية والعقلية والاجتماعية، ومثال ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث علياً رضي الله عنه- وهو حديث السنن إلى اليمن قاضياً، فكان في هذا مسؤولية كبيرة حملها النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن عمه أراد منها أن يؤهل ابن عمه وينمي مهاراته الاجتماعية وقدرته على القضاء والحكم بين الناس؛ والحديث يرويه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قائلاً: "بعثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسول الله، ترسلني وأنا حديث السنن ولا علم لي بالقضاء؟ فقال: "إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء" قال: فما زلت قاضياً أو ما شككت في قضاء بعد." (2)

وأما التربية العلمية، فهو جانب مهم ظهر في تربية النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبناء عمومته الذين احتضنهم في بيته وفي مسجده وفي رحلاته وغزواته، فقدّم لهم التربية والرعاية والتوجيه. فعلي بن أبي طالب أوتي قدراً من العلم كبير ومعرفة بكتاب الله تعالى ما أحدها إلا لأنه كان من أوائل من شهد الوحي ولازم المصطفى منذ طفولته في بيته وفي حله وترحاله، وإن فاته شيء مما نزل ما كان ليتردد في السؤال عن نزوله وسبب نزوله، قال علي -رضي الله عنه: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت، وإن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً ناطقاً." (3) وقالت عنه عائشة رضي الله عنها: "أما إنه أعلم من بقي بالسنة." (4) وكذلك دعاؤه -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس بالعلم والحكمة: "فَعِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ضَمَّنِي النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ "اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ." (5) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضاً "أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- دَخَلَ الْخَلَاءَ، فَوَضَعَتْ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: "مَنْ وَضَعَ هَذَا"، فَأُخْبِرَ. فَقَالَ: "اللَّهُمَّ فَهِّهُ فِي الدِّينِ." (6) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِي أَوْ عَلَى مَنْكِبِي -شَكَ سَعِيدٌ- ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فَهِّهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ." (7)

ففي هذه الأحاديث، يظهر الجانب الأبوي التربوي من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس؛ إذ أنه في الموقف الأول يحرص على ضم ابن عباس إلى صدره ضمة أشعرته بالحب والود وقربه منه -صلى الله عليه وسلم-

-
- (1) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب الصلح، كَيْفَ يُكْتَبُ هَذَا مَا صَلَّحَ فَلَانَ بِنُ فُلَانَ، رقم الحديث 2699، ج 10، ص 20.
 - (2) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين، بيروت: دار الفكر، كتاب الأفضية، باب كيف القضاء، رقم الحديث 3582، ج 2، ص 325.
 - (3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 1، ص 238.
 - (4) المرجع السابق، ج 1، ص 239.
 - (5) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل ابن عباس، رقم الحديث 3756، ج 5، ص 27.
 - (6) المرجع السابق، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، رقم الحديث 143.
 - (7) أحمد، المسند. مرجع سابق، رقم الحديث 2397، ج 4، ص 225. قال شعيب الأرنؤوط: الحديث إسناده قوي.

وسلم-، ثم لم يكتف -صلى الله عليه وسلم- بذلك وإنما أخذ يدعو له على مسمعه ليؤكد محبة الخير له، وقد تكرر هذا الدعاء لابن عباس مرتين.⁽¹⁾ وفي الموقف الثاني، نجده -صلوات الله وسلامه عليه- يحرص على الثناء على حسن فعل ابن عباس وعلى فهمه لما فعله من إحضار للماء وهيئته لوضوئه -صلى الله عليه وسلم- دون أن يطلب منه أن يفعل ذلك، فزاد على ذلك بالدعاء له بالفقه في الدين، وهذا ما تحقق لابن عباس -رضي الله عنه-. وعلى هذا الموقف يعلق خالد محمد: "لقد عرف ابن عباس طريق حياته في أوليات أيامه وازداد بها معرفة عندما رأى الرسول -عليه الصلاة والسلام- يدينه منه وهو طفل، ويربّت على كتفه وهو يقول: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل." ثم توالى المناسبات والفرص التي يكرر فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- هذا الدعاء ذاته لابن عمه عبدالله بن عباس، وآتذ، أدرك ابن عباس أنه خلق للعلم والمعرفة. وكان استعداده العقلي يدفعه في هذا الطريق دفعا قويا. فعلى الرغم من أنه لم يكن قد جاوز الثالثة عشرة من عمره يوم مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإنه لم يصنع من طفولته الواعية يوماً دون أن يشهد مجالس الرسول ويحفظ عنه ما يقول".⁽²⁾

إنّ المتأمل لنصوص السيرة النبوية المتعلقة بعلي بن أبي طالب وابن عباس يرى أن توجيهات النبي -صلى الله عليه وسلم- وتربيته لأبناء عمومته تناسبت معهما بحسب الغاية والدور المأمول لكل منهما مستقبلاً، فقد حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على تنمية جوانب القيادة والمسؤولية عند علي بن أبي طالب، حيث ظهر هذا في المواقف المذكورة سابقاً، بالإضافة إلى العديد من المواقف الأخرى التي ذكرتها كتب السير من مثل تسليمه -صلى الله عليه وسلم- الراية في خيبر⁽³⁾، وتأميره على المدينة في غزوة تبوك.⁽⁴⁾ وحرصه على توجيه ابن عباس إلى الاهتمام بتأويل القرآن الكريم والحرص على العلم. كما أنه يظهر بوضوح أنّ رعاية النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي وابن عباس -رضي الله عنهما- يعدان نموذجان يوضحان أثر رعاية الأسرة الممتدة لأبنائها، على الرغم من اختلاف صورة العلاقة داخل الأسرة؛ فعلي بن أبي طالب نشأ في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، في حين أن ابن عباس لم يكن مقيماً وإثماً كان ملازماً للنبي -صلى الله عليه وسلم- في أوقات كثيرة، ومع ذلك استطاع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يوظف صلة الرحم التي تجمعهم بما لما يعود عليهما بالخير الوفير، وهذان النموذجان يؤكدان ضرورة الحرص على ذوي القربى بالرعاية والعناية.

ج. جهود السيدة عائشة رضي الله عنها في دعم الأسرة الممتدة ورعاية أفرادها:

لقد كان للأسرة الممتدة أثر عميق وكبير في نشر علوم الشريعة والسنة النبوية، وهذا الأمر نشأ في بيت النبوة أول ما نشأ، إذ أنّ الترابط الأسري وامتداده ساهم في انتشار العلم من خلال رواية الأقارب عن بعضهم بعضاً، ويعد بيت عائشة -رضي الله عنها- بنت الصديق مثلاً جلياً يُظهر أهمية الأسرة الممتدة ودورها في تنشئة الفرد

(1) لفظ الحديث: "عن ابن عباس: قال دعا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤتيني الحكمة مرتين"، انظر:

- النسائي، أحمد بن شعيب (توفي 303هـ). السنن الكبرى، بيروت: دار الكتب العلمية، تحقيق عبدالغفار البنداري وآخرون، ط1، 1991م، كتاب المناقب، باب عبدالله بن العباس بن عبد المطلب حبر الأمة، رقم الحديث 8178، ج5، ص 52.

(2) خالد، رجال حول الرسول، مرجع سابق، ص392.

(3) انظر: البخاري، صحيح البخاري. مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، رقم الحديث: 3702، و 3706.

(4) مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب، رقم الحديث 2404، ج4، ص1870.

وإمداده بالعلوم والمعارف خاصة إذا كان في إطار عائلة من أوتي قدراً من المعرفة والعلم كالسيدة عائشة، فليس بالضرورة أن يكون امتداد العلم وحمله على يد الأبناء من الصلب وحسب فيكونوا هم من يخلفون الأب أو الأم في وراثة العلم وأصوله، وإنما الدائرة أوسع من ذلك بكثير، فوجود الأسرة الممتدة يهيئ لأفرادها فرص نيل المعرفة من أقاربهم بصورة قوية خاصة مع سهولة التواجد والاتصال والسماع المباشر. وهذا ما توفر لأبناء السيدة أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهم- وهم عبد الله ومصعب وعروة وجعفر،⁽¹⁾ الذين كانوا حريصين على أخذ العلم عن خالتهم عائشة -رضي الله عنها- (والتي لم ترزق بأبناء)، فكانت علاقتها مع أبناء أختها علاقة متميزة ساهمت في دعمهم علمياً وتربوياً وانتقال الإرث العلمي منها إليهم، وكذلك الحال بالنسبة لأبناء إخوتها (محمد وعبد الرحمن) أبناء أبي بكر الصديق -رضي الله عنهم-، فقد روى عنها الحديث أبناء أخيها: عبد الله والقاسم ابنا محمد، وعبد الله بن أبي عتيق محمد ابن أخيها عبد الرحمن. وفيما يأتي توضيح لذلك:⁽²⁾

- أبناء أختها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما عبد الله وعروة:

أما عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- فكان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة، وكان من صغار الصحابة، وكان ملازماً للولج على رسول الله لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة -رضي الله عنها- ويأخذ عنها العلم، وقد روى عنه الإمام أحمد بن حنبل بضعاً وثلاثين حديثاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.⁽³⁾ كما أنه روى عن عدد من الصحابة وعن جده لأمه (أبي بكر الصديق) -رضي الله عنه-، وروى عن أمه أسماء وعن خالته عائشة عدداً من الأحاديث.⁽⁴⁾ وقد كان هذا الاهتمام العلمي سمة واضحة المعالم وأثراً بارزاً لبيت الصديق وأحفاده، فعبد الله نفسه يروي عنه الحديث والعلم ابناه عامر وعباد وابن أخيه محمد بن عروة بن الزبير،⁽⁵⁾ كما أن أولاده حرصوا على تتبع خطى والدهم في تلقي العلم عن خالة أبيهم السيدة عائشة، حيث روى عنها ابنه عباد بن عبد الله بن الزبير وهو إمام كبير من أئمة القضاء والفقهاء، لُهل العلم عن والده وجدته أسماء وخالة أبيه عائشة.⁽⁶⁾

وأما عروة بن الزبير، فهو أحد الفقهاء السبعة وعالم المدينة، وهو من التابعين، وقد ولد للسيدة أسماء بنت أبي بكر بعد عشرين سنة من مولد عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهم جميعاً-، وقد نشأ عروة في كنف خالته عائشة ولازمها لأجل علمها،⁽⁷⁾ فكان ينهل منها الحديث والفقهاء والشعر وسائر ما تعلمته، وكان تأثره بها تأثراً بليغاً اكتسب به الفصاحة والبلاغة والبيان. وقد كان تحصيل العلم أمنيته التي رويت عنه في القصة التي جمعت بينه وبين عبد الملك بن مروان وأخويه عبد الله ومصعب في المسجد الحرام، فذكر كل منهم أمنيته، "وقال عروة: لست في

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 1، ص 42.

(2) المرجع السابق، ج 2، ص 137.

(3) المرجع السابق، ج 3، ص 363.

(4) انظر: المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن (توفي 724هـ). تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي، 1983م، ج 13، ص 308-312. (حيث أورد أحاديثه عن خالته السيدة عائشة رضي الله عنها).

(5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 13، ص 364، (ترجمة عبد الله بن الزبير).

(6) المرجع السابق، ج 4، ص 217.

(7) المرجع السابق، ج 4، ص 421، (ترجمة عروة بن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم).

شيء مما أتمتم فيه، منيبي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم."⁽¹⁾ ولذا، حرص على ملازمة حالته عائشة على وجه الخصوص لأخذ العلم عنها، فكان أكثر إخوانه رواية عنها -رضي الله عنها-، بل كان أكثر من روى عنها الحديث، وقد أورد المزي أحاديثه عن عائشة -رضي الله عنها- وقد زادت عن ألف ونيّف من الأحاديث،⁽²⁾ ويذكر أن أحاديث السيدة عائشة بلغت ألفين ومئتين وعشرة أحاديث.⁽³⁾ وما يدل على هذه الميزة التي امتاز بها عروة بن الزبير ما رواه الإمام الزهري عن قبيصة بن ذؤيب، قال: "كنا في خلافة معاوية [...] نجتمع في حلقة بالمسجد بالليل، أنا ومصعب وعروة ابنا الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الملك بن مروان [...]، وكنا نتفرق بالنهار، فكنت أنا أجالس زيد بن ثابت وهو مترأس بالمدينة في القضاء [...]، ثم كنت أنا وأبو بكر بن عبد الرحمن نجالس أبا هريرة، وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة."⁽⁴⁾ وقوله: "وكان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة" يدل دلالة واضحة على أنّ صلة القرابة التي جمعت بين عروة بين الزبير والسيدة عائشة كان لها دور هام في سهولة التلقي عنها وهيئة السماع له منها في كل وقت ومن دون حرج أو مانع، في حين أن هذا الأمر لم يتهياً لبقية أقرانه ممن كانوا يطمحون في أخذ العلم عن زوج النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد استمرت ملازمة عروة لخالته لما يقارب ثلاثة عقود من الزمان، فعروة ولد بحسب أقوال المؤرخين سنة ثلاث وعشرين للهجرة، والسيدة عائشة -رضي الله عنها- توفيت سنة ثمان وخمسين للهجرة. "قال هشام، عن أبيه: ما ماتت عائشة حتى تركتها قبل ذلك بثلاث سنين". وروي عنه أنه قال: "لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربع حجج، وأنا أقول: لو ماتت اليوم ما ندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته."⁽⁵⁾ وهذه الآثار دلت على أن فترة ملازمة ملازمة عروة لخالته عائشة كانت فترة طويلة، ولم يتركها إلا قبل ثلاث سنوات من وفاتها -رضي الله عنها-.

وسعة علم عروة يعد دليلاً واضحاً على أثر علاقة القرابة التي أسهمت في نقل علم السيدة عائشة إليه، فقد تهيأت له الظروف الكاملة لملازمتها وسماعها وأخذ العلم عنها. وهذا ما شهد به العلماء له، فقد روي عن سفيان بن عيينة قوله: "أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة: القاسم وعروة وعمرة."⁽⁶⁾ وقد قيل له فيما قيل له: "ما أرواك يا أبا عبد الله! وكان أروى الناس للشعر، فقال: وما روايتي من رواية عائشة -رضي الله عنها-، ما كان يتزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً."⁽⁷⁾ وفي ذلك يروي عنه ابنه هشام بن عروة فيقول: "كان عروة يقول لعائشة: يا أمّات، لا أعجب من فهمك؛ أقول: زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب، كيف هو ومن أين هو؟ قال: فضربت على منكبه، وقالت: أي عرية! إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

(1) ابن حلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مرجع سابق، ج3، ص258.

(2) انظر أحاديثه التي أورد طرقها المزي، في كتابه تحفة الأشراف: ج13، ص350 ولغاية ج14، ص27، أحاديث ذات الأرقام-17370.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج2، ص139.

(4) المرجع السابق، ج4، ص424.

(5) المرجع السابق، ج4، ص424.

(6) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج5، ص56.

(7) ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله (توفي 571هـ). تاريخ دمشق، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر، ط1، 1998م، ج11، ص426.

وسلم- كان يسقم عند آخر عمره -أو في آخر عمره- فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له فتعلمت ذلك." (1)

- ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (2)

ولد القاسم في خلافة علي بن أبي طالب، "وقد كان ثقة عالماً رفيعاً فقيهاً إماماً ورعاً كثير الحديث". ربي في حجر عمته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، وتفقه منها، وأكثر الرواية عنها، فكان من الثلاثة الذين يؤخذ عنهم علم عائشة -رضي الله عنها-. ويروي القاسم عن نفسه قائلاً: "كانت عائشة قد استقلت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر وإلى أن ماتت، وكنت ملازماً لها..." (3) ونلاحظ من سيرة القاسم بن محمد أن عامل القرابة القرابة كان سبباً رئيساً في تمكنه من ملازمة عمته التي لم تبخل عليه بعلمها وفقهها، ويبدو أن بيت السيدة عائشة -رضي الله عنها- كان بيت علم وتلمذة هيأ الله به الظروف لنشر الفقه والحديث والعلم وينتفع المسلمون به أيما انتفاع؛ لقد قدّمت السيدة عائشة -رضي الله عنها- نموذجاً ناجحاً يظهر أثر الأسرة الممتدة وأهمية القرابة في التنشئة والتوجيه والبناء الفكري والعلمي، إذ لولا هذه القرابة التي جمعت بينها وبين أبناء أختها أسماء بنت أبي بكر وأبناء أخيها، ما تهيأت لهم فرصة الملازمة والتلقي والتربية، وهذا كان موطناً حُسد عليه عروة بن الزبير من قبل أقرانه، إذ أنهم ما كانوا يستطيعون أن يتلقوا العلم ويتربوا على يدي السيدة عائشة -رضي الله عليهم- بنفس الفرصة التي تحققت له. واختتم كلامي بشاهد يدل على حرص السيدة عائشة -رضي الله عنها- على التوجيه رواه ابن أخيها عبد الله بن أبي عتيق، حيث قال: "تحدثت أنا والقاسم عند عائشة -رضي الله عنها- حديثاً، وكان القاسم رجلاً لحائناً، وكان لأمّ ولدي، فقالت له عائشة: "ما لك لا تحدث كما يتحدث ابن أخي هذا؟! أما إني قد علمت من أين أتيت. هذا أدبته أمه وأنت أدبتك أمك. قال: فعضب القاسم، وأضب عليهما، فلمّا رأى مائدة عائشة قد أتت بها قام، قالت: "أين؟ قال: أصلي. قالت: اجلس. قال: إني أصلي. قالت: اجلس غدراً إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول لا صلاة بحضرة الطعام ولا هو يدافعه الأخبثان." (4) والحديث يتضح فيه فيه البعد التربوي في الملاحظة والتوجيه، وتصحيح السلوك من قبل السيدة عائشة -رضي الله عنها- حتى وإن كان فيه قسوة على ابن أخيها القاسم بن محمد، ولكن الهدف كان تربيته وتقويم لسانه حتى يرتقي مدارج العلماء، وهذا ما تحصل له بعد ملازمته لعمته التي كان لها تأثير كبير عليه، فنهضت به ليصبح ممن يؤخذ عنه علمها ويتخلص من جوانب الضعف التي ألت به بسبب نشأته في طفولته وتأثره بلسان أمه. (5)

(1) أحمد، المسند، مرجع سابق، ج 40، ص 441.

(2) انظر ترجمته في:

ابن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ج 5، ص 187.

ابن خليفة، ابن خياط أبو عمر الليثي العصفري. الطبقات، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الرياض: دار طيبة، ط2، 1982م، ص 244.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 5، ص 55.

(4) مسلم، صحيح مسلم، مرجع سابق، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة

الصلاة مع مدافعة الأخبثان، رقم الحديث 560، ج 1، ص 393.

(5) قال ابن سعد: "أمه أم ولد يقال لها: سودة"، ولعل هذا سبب من أسباب تربيته عند عمته السيدة عائشة رضي الله عنها، انظر:

الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج 5، ص 55.

خاتمة:

1. هدفت هذه الورقة إلى بيان أهمية الأسرة الممتدة في تنشئة الفرد وبناء شخصيته من النواحي الفكرية والثقافية والدينية؛ من خلال بيان منهج القرآن الكريم والسنة النبوية في رعاية الأسرة، وتوضيح العلاقة بينها وبين الأسرة النووية، ثم عرض نماذج من تمثيلات الأسرة الممتدة في بيت النبوة. وقد أثبتت الدراسة أن للأسرة الممتدة أثر كبير في تنشئة الأفراد وتربيتهم والارتقاء بهم من النواحي القيمية والتربوية والعلمية، والتي ظهرت من خلال الآتي:

- حرص منهج القرآن الكريم والسنة النبوية على تفعيل دور الأسرة الممتدة تجاه أفرادها من خلال مجموعة من الأحكام الشرعية والتكليفات المادية والاجتماعية التي تسهم في تقوية علاقة الفرد بأسرته الممتدة - إن طبقت بصورة متكاملة - من خلال نظام المساندة الاجتماعي والمادي والعلمي الذي تستطيع الأسرة تقديمه.
- هناك ارتباط وثيق بين الأسرة النواة والأسرة الممتدة لا يمكن إغفاله، فالأسرة الممتدة قد تكون داعمة ومعينة أو بديلة عن الأسرة النواة، وهذه الأدوار تسهم في حفظ أفراد المجتمع من الضياع والتشرد عند غياب وجود الأسرة النواة.
- استطاعت سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أفراد عائلته، وسيرة أزواجه -رضي الله عنهن- من تقديم نماذج ممكنة التطبيق في واقعنا المعاصر يعيد للأسرة الممتدة مكانتها كمؤسسة تربوية داعمة دورها الهام.
- إن نشأة الأفراد في ظل أسرة ممتدة - كما حصل مع علي بن أبي طالب وابن عباس وعروة بن الزبير وغيرهم - أسهم في تنوع خبراتهم الاجتماعية واكتسابهم مهارات معرفية وسلوكية ما كانت لتتحصل لهم لو أنهم نشأوا في إطار أسرهم النووية بعيداً عن رعاية النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم.
- إثارة وعي الأفراد بأهمية شعورهم بالمسؤولية الاجتماعية المتبادلة تجاه ذوي القربى اقتداءً بما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وبخاصة العلماء منهم؛ إذ ينبغي للعلماء الاقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في تخصيص نصيب لذوي القربى في الرعاية والتربية والتوجيه لأحقيتهم، وهو ما فعله -صلى الله عليه وسلم-.
- توعية المرأة بأهمية دورها في تفعيل دور الأسرة الممتدة، وتقوية روابط الرحم وصلة القرابة، وتقديم الرعاية الممكنة لأفراد الأسرة بقدر استطاعتها وعلمها.
- عدم قصر حقوق ذوي القربى أو أفراد العائلة الممتدة على النواحي المادية وإنما تعدي ذلك إلى وجود الدعم المعنوي والمساندة العلمية والتربوية.

2. وقد خرجت من هذه الورقة بجملة من التصورات حول إمكانية تفعيل دور الأسرة الممتدة، كالآتي:

- العمل على تغيير قناعات أفراد المجتمع حول أهمية دور الأسرة الممتدة كمؤسسة اجتماعية يقع على عاتقها دور حقيقي تضطلع به، ينبغي إعادة تفعيله لتكون مؤسسة مساندة في المجتمع، الأمر الذي يملئ على أفراد المجتمع بشرائحه المختلفة - كل في موقعه - التفكير في كيفية إعادة هذا الدور الهام للأسرة الممتدة.
- تحذير الأفراد من تبعات إضعاف دور الأسرة الممتدة الذي نشأ عنه إضعاف مستمر لدور الأسرة النواة، إذ أنّ تغييب دورها وعدم فاعليتها ألقى بأعباءً جسيمة على الأسرة النواة، نجم عنه حالة الضعف الحالي الذي تعاني منه الأسر في التربية والتوجيه ومواجهة تحديات العصر، وضعف انتماء الفرد لأسرته ومن ثمّ لمجتمعها.

- إيجاد آليات تعمل على تقوية روابط الرحم، وتهيئ للأفراد مناخاً صحياً، وفرص احتكاك موجهة -وليس عشوائية- بينهم وبين أقاربهم، كالاتفاق على إيجاد حلقات دروس أسبوعية لأفراد العائلة، أو ممارسة نشاطات مشتركة بينهم، وعدم قصر اللقاءات والزيارات على المحاملات الاجتماعية المعتادة.
- تبني أفراد العائلة الواحدة مبدأ المشاركة الفاعلة الإيجابية، من خلال تبادل الخبرات المتنوعة سواء أكانت علمية أم عملية، لما في هذا من صلة للرحم وإعطاء ذوي القربى حقهم.

3. ومن التوصيات التي خرجت بها من خلال هذه الدراسة الآتي:

- الحاجة إلى وجود قراءة متكاملة لمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية في بناء الأسرة الممتدة، ودراسة أثر هذا المنهج على تنشئة الفرد ورعايته في سبيل تقديم التصور الصحيح والأمثل للدور الذي ينبغي أن تقوم به الأسرة الممتدة.
- تتبع المزيد من أمثلة ونماذج العلاقات الأسرية التي نشأت في بيت النبوة، واستخلاص رؤية تطبيقية للعلاقات الأسرية الناجحة.
- إيلاء موضوع الأسرة الممتدة مزيد اهتمام من التربويين والمتخصصين وخاصة في مجتمعنا الأردني، لا سيما مع شح الدراسات المتخصصة في هذا الموضوع.